مداخلات لغوية

أبو أوس إبراهيم الشمسان

لسان آدم (٢)*

يبدأ عبد الفتاح كيليطو حديثه عن (أقدم قصيدة في الدنيا) بسؤال «إذا كانت العربية عند بعض المؤلفين هي لسان الجنة، فماذا سيكون لسان الهبوط؟ هل(١) سيستمر آدم، بعد طرده من جنّة عدْن، في التكلّم بالعربية، أم سَيُعَبِّرُ بلسان آخر؟»، ونجده في محاولة الإجابة عن السؤال يعيد فضل معرفة الجواب إلى الكتابات التي أثيرت حول قصيدة نُسبت إلى آدم يرثي بها ابنه هابيل، «لأنّ آدم لم يكن أول نبيٍّ فحسب، وإنّما كذلك أوّل شاعر».

ويمضي المؤلف يحكي النزاع بين ابني آدم مستعينًا بما ورد في القرآن الكريم وكتب التاريخ والتفاسير وبما جاء في سفر التكوين، ويشير إلى الأوائل فالغراب يسنّ الدفن، وقابيل أوّل من سنّ القتل، وهابيل أول قتيل من بني آدم، وآدم أول من نظم قصيدة رثاء، ويدخلنا في مضمون القصيدة التي تحكي عن تبدل وخراب وبهذا تكون الأرض معلنة عن حدادها، ويُورد المؤلف القصيدة من مصادرها العربية فيذكر أنّ أول من ذكرها القرشي في جمهرة أشعار العرب.. ثم يذكر أن الطبري يذكر القصيدة بسلسلة إسناد يوصلها إلى عليّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه، ولا يغفل المؤلف أشعاراً أخرى كشعر إبليس الذي يرد به على آدم وما نسب إلى بعض الملائكة، ويورد أبيات نسبت لحواء تحثه على الرضا بالقدر.. وينتهي الموضوع من غير جواب حاسم عن السؤال الذي افتتح به الموضوع، لأن القضية لما تنته بعد فهي متصلة في الموضوع الذي يليه وهو (شاعرٌ أم نبيٌّ؟) حيث تطرح أسئلة عن صحة المرثية ولغتها وروايتها، ويبدأ بتكذيب ابن عباس من نسب الشعر إلى آدم ويقرن المؤلف ذلك بنفي قول الشعر عن النبي صلى الله عليه وسلم حين اتهمه بعض قريش بذلك، وينتهي إلى أن القصيدة موضوعة مصنوعة، والحق أنّ هذا بيّن واضح ليس بحاجة إلى شواهد أو أدلة..

وينتقل المؤلف إلى لغة آدم فيذكر تأكيد الثعلبي أن لغة آدم بعد هبوطه من الجنة كانت السريانيّة ويورد ما ذكره السيوطي من قول ابن عباس أن آدم لغته في الجنة العربية ثم سلبها بعد عصيانه ثم ردت إليه لما تاب الله عليه، ويمضي المؤلف في إمكان كون المرثية نظمت بالسريانية أو قيلت نثراً بالسريانية ويعرج على رأي الجاحظ في صعوبة ترجمة الشعر، ولكنه يعود للمرثية ليرى أنها إن قيلت بالسريانية فلا ضير من نسبتها لنبي لأن السريانية وغيرها من اللغات غير العربية بعيدة عن الشعر، ويستنتج من هذا كونها قيلت نثرًا وظلت تنتقل من جيل إلى جيل حتى انتهت إلى يعرب ملك اليمن الذي يُقال إنه أول من تكلم بالعربية، وجملة ما يتردد في بقية الموضوع توحي بالغرابة وجو الأساطير وجانب غير معقول من مرويات التراث بأخبار غير مؤكدة، ولكن المؤلف لا ينتهي إلى قول فصل في شأن المرثية فيسلمنا إلى الموضوع الذي يليه (آدم أو النسيان) حيث يبسط الحديث عن أثر أدبي هو رسالة الغفران للمعري الذي ورد فيها لقاء ابن القارح في الجنة آدم عليه السلام ليسأله عن بيتين منسوبين إليه فينكر آدم معرفته بهما، ويتساءل المؤلف أيكون نسي شعره والإنسان من النسيان، ويختم المؤلف بقوله «طرد آدم من الجنة فنسي العربية وتكلم السريانية ولما عاد إلى الجنة نسي السريانية وتكلم العربية»، وهو بهذا يصل إلى أن آدم «إنسان لسان واحد»، وأما المرثية فكان آخر مقال لها حديث عن (مصير قصيدة).

ويعرض المؤلف لما سمّاه مسألة شكلية ذكرها القرشي وهي الإقواء؛ إذ روي البيت الثاني مكسور خلافاً لروي البيت الأول المضموم، وذكر أنها ظاهرة مقبولة في الشعر الجاهلي ليصل إلى أنها قد تكون دليلاً على قدم الأبيات المنسوبة إلى آدم؛ ولكن الرواية قد تصححه، جاء في تفسير البحر المحيط «وقول الزمخشري في الشعر: إنه ملحون، يشير فيه إلى البيت وهو الثاني:

تغير كل ذي لون وطعم
وقل بشاشة الوجه المليح

يرويه بشاشة الوجه المليح على الاقواء، ويروى بنصب بشاشة من غير تنوينَ، ورفع الوجه المليح. وليس بلحن، قد خرجوه على حذف التنوين من بشاشة، ونصبه على التمييز، وحذف التنوين لالتقاء الألف واللام، والأمر الذي أميل إليه أنّ رواية الكسر متوقف فيها وأنّ الصحيح (المليحُ) بالضم لا الكسر؛ فلعل رواية الكسر استجابة لأحكام نحوية، أمّا الشاعر فلا يهمه الإعراب بل استقامة النغم والإنشاد، وليس في الرفع معاندة لقواعد النحو؛ إذ للنحويين مخرج آخر لا أدري لم أغفل أمره وهو تخريجه على قطع النعت، فيكون عندهم خبر مبتدأ محذوف (هو القبيح)، ثم عرض لرأي من قال بانتحالها بسبب رداءتها، ولكنه يرى أن هذا القول إن لم يكن متحيزًا فهو جزئي لم ينظر إليها في سياقها ومشهدها المسرحي، فهي مكملة للقصة المأساوية وأن الناظم المجهول قد صنع الأبيات التي كان لا بد أن يقولها آدم.. وإن من الجلي أنّ تقليب الأمر ومناقشته مهما تكن طريفة ممتعة صالحة لتزجية الوقت فإنها لا ترضي العقل، فإن قبلت فمن باب الفنون القولية، والمؤلف بلا جدال قارئ متمرس بالتراث؛ ولكنه عرض لمسائل معروفة نتائجها مقررة على الصحيح، فلا أحد يعرف على وجه اليقين لغة آدم وما نسب إليه من شعر منحول كما قرر القدماء وانتهى إلى تقريره المؤلف، غير أنه بيّن سرّ الانتحال وهو رغبة في إكمال مشهد المأساة الآدمية بوضع قصيدة تقيدها.

(*) مهداة إلى ابني أوس لما اقترح قراءة الكتاب وعرضه للقارئ.

(١) الصواب استعمال همزة الاستفهام فيقال أسيستمر؛ لأنه سؤال عن التصور لا التصديق.

◆ الرياض

لإبداء الرأي حول هذا المقال، أرسل رسالة قصيرة SMS تبدأ برقم الكاتب«٧٩٨٧» ثم أرسلها إلى الكود ٨٢٢٤٤

نوفل أبو رغيف وسفينة نوح!

قاسم حول

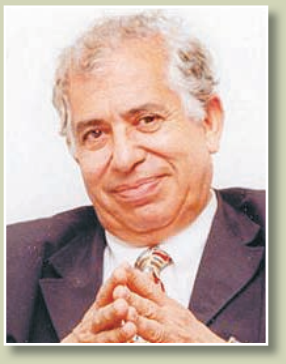

ليس الآن بل إن قصة الثقافة العراقية تعود إلى أزمان بعيدة. كانت الثقافة العراقية صافية واضحة في عهد السومريين. ملحمة كلكامش أوضح مثال على قوة الثقافة العراقية ووضوحها ونبلها وهي تشكل مشهدا في سيناريو فيلمي الجديد «الحاكي»، ولعل الكتابة السومرية هي أوضح مثال على قوة الثقافة العراقية في بلاد ما بين النهرين. ليست الكتابة بحد ذاتها إنما في تدوين يوميات الحياة على رقم طينية هي الآن بحوزة المتحف البريطاني وموجودة في مدرسة تحت المتحف لا يزال عدد من الأساتذة المتخصصين يفكون رموزها وزيارة هذه المدرسة وتصوير ما يجري تحت أرض المتحف البريطاني يحتاج إلى موافقات كثيرة يستغرق الحصول عليها شهورا.

بقيت هذه الثقافة مثالا تغترف منه الكثير من الثقافات الإنسانية.

ومع تأسيس الدولة العراقية الحديثة تكونت ثقافات أدبية وفنية نمت مع نمو التطور السياسي والاجتماعي، لكن الانقلابات الدرامية العسكرية والحزبية جعلت الثقافة العراقية تتخذ مسارات مختلفة فمن ثقافات موالية لفكر السلطات الحاكمة إلى ثقافات مهاجرة وثالثة مصابة بالرعب.

بعد سقوط النظام الدكتاتوري في العراق تاهت الثقافة العراقية في دروب المحاصصة الطائفية وصار يتحكم بها نفر من سقط المتاع لم نسمع بهم من قبل وإن سمعنا بهم فإنهم يدخلون ويخرجون من تحت خيمة الدكتاتور وابنه الصغير الذي صار يدوس على الثقافة بإقدامه ونزواته وشلة من الكتاب يزوقون صورته المخيفة. هؤلاء لا يزالون هم أنفسهم يعبثون اليوم بثقافة العراق، مستغفلين الناس يوم غنوا للدكتاتور على المسرح في ذكرى أعياد ميلاده وفي ذكرى حروبه تحت راية «التكبير» التي دمرت الروح العراقية.

وسط هذه العتمة المخيفة يحاول شباب من المثقفين أن ينهضوا وينهضوا بصعوبة لأنهم ينهضون من عتمة الركام التي يحاول كتبة النظام السابق من غلق منافذ كوة الحطام، حطام الوطن وحطام الثقافة.

بالتأكيد العملية ليست سهلة. هي عملية عسيرة وخوف مرعب يواجه المثقف العراقي، فهل يعيد المثقف العراقي تأسيس رابطة للكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين في المنفى ويبدأون النضال الثقافي وحتى السياسي من جديد؟ شرطة الثقافة وثقافة الشرطة البائسة التي اتسم بها النظام الشمولي والديكتاتوري لا تزال ولا يزال الشرطة ذاتهم يحملون الهراوات مهددين المثقف بالوجع والدم بل صاروا يستأجرون شبابا من القتلة المأجورين والمخدرين الذين ينفذون الجريمة بدم بارد، وقد راح ضحية هذا النشاط المخدر مبدعون كبار، رحلوا ولم يتركوا سوى الحزن في وجوه المثقفين الباقين وأراهم وكأنهم ينتظرون أدوارهم أمام شباك تذاكر سينما الاغتيالات.

لا يوجد اتحاد كتاب عرب ولا اتحاد صحفيين عرب ولا اتحاد فنانين عرب ينتشلون تعب المثقف العراقي الذي بات يبحث عن خبزه وقد نسي قصيدة الشعر والقصة والرواية وعدسة الكاميرا وفرشاة الرسم وإزميل النحت ونوتة الموسيقى، يركض المثقف بحثا عن راتب بائس يسمونه التقاعدي. وحكاية الشاعر محمد علي الخفاجي الذي بقي يركض على مدى ثلاث سنوات للحصول على راتبه التقاعدي خير مثال ما حدا ببعض المستشارين أن يغمزوا لرئيس الوزراء قائلين «عيب» فأصدر أوامره الفوقية بمنح الشاعر بضعة مئات من الدولارات هي حقوقه المشروعة وليست منة حيث استقطعت منه في شبابه مستحقات الخدمة لتعاد إليه بعد بلوغه سن التقاعد فشعر الخفاجي بالفرح أن يعيش بدون تعب، يأتيه راتبه التقاعدي كي يكتب القصيدة براحة بال. بعد ثلاثة أيام من تلقيه نبأ منحه راتبه التقاعدي.. مات!

أيها الأميون القابعون في بغداد حاملو الهراوات، الشرطة والحاسدون، نعرف أن في الوطن العراقي اليوم شبابا متسكعين لا يقرأون ولا يكتبون ولم يسمعوا كلمة ثقافة إذ قد يظنونها وجبة طعام جاهزة تقدم على الماشي. هؤلاء يشترون المخدرات ويسمونهم في العراق المكبسلين «نسبة إلى الكبسولة» وهم مسلوبو الإرادة، يتسلمون عشرين دولاراً لتنفيذ عملية اغتيال مثقف بكاتم صوت يتيح لهم شراء همبرغر وكبسولة وإستكان شاي، ولا أحد يعرف بهذه الحقائق لا في الوطن العربي في خضم ربيعه الهائج المائج ولا في العالم في خضم الصراع بين الكوريتين. آخر المقتولين بالكبسلة كاتمة الصوت هو الكاتب كامل شياع.

مسكين المثقف العراقي سادتي الذين يقرأونني. صار يتحكم بإبداعه وقدراته نفر يحقدون على الثقافة لأن الثقافة العراقية الحقيقية واجهت الدكتاتور بفروسية عالية. وانتصرت، ولكن ككل التحولات الدراماتيكية في العالم دائما ثمة من يقطف الثمر غير المزارعين. بلديات أوربا وبلدية هولندا ضمنها تمنح المهاجرين مثل الهولنديين أراض زراعية حى لا تبقى المزارع خاوية من أشجارها وثمارها. وكنت واحدا من هؤلاء بعد وصولي هولندا فبدأت أزرع الأشجار والخضار وعندما أثمر البستان جئت ذات صباح فوجدته خاليا من الثمر. جاء إلى مزرعتي نفر من المتسكعين فناموا في البستان وأكلوا من الثمر وقطفوا الباقي لبيعه في الأسواق الشعبية!

هذا ما حصل للمثقف العراقي الحقيقي داخل العراق!

من يزور العراق اليوم لا يرى سوى بؤس الثقافة. أفق مغلق. لا أحد يبتسم سوى اللصوص الذين يضحكون على شعب يظنون أنه مغفل، وحيث أبواب المصرف المركزي العراقي مشرعة الأبواب لمن يسرق. والمثقف العراقي لا حول له ولا قوة. يبحث عن رغيف الخبز والحاسوب الذي بات مثل الحلم المستحيل.

وسط هذا البؤس والفقر والجدب تم افتتاح معرض الكتاب في معرض بغداد وإذا في داخل هذه التظاهرة الثقافية ندوات عن السينما والمسرح والقصة والرواية وبحوث في التقنية وإذا بجمهور يملأ صالات الندوات. حركة دائبة كشفت زيف الثقافة المفتعلة وأعادت في جانب آخر الثقة في الثقافة الأصيلة. اسم هذا الشخص الذي حرك الماء الراكد وأحاله موجاً هو الشاعر المرهف «نوفل أبو رغيف» أشد على يده وأخاف عليه!

ليست عندي هدية أقدمها لهذا الشاعر الشجاع المخبول بالنشاط وبالإنقاذ سوى الحب، فهو أنقذ الغرقى من بحر الصراع حيث يأسوا من فكرة النجاة. أقول للشاعر الدكتور نوفل أبو رغيف، سر بسفينة نوح التي بنيتها مع أصحابك كلهم كي تنقذ الثقافة من الغرق ومن الطوفان. مجداً لك يا نوفل بهذه التظاهرة الرائعة في بغداد الحزينة التي تغنى بها ضيوف المهرجان الحقيقيون في قصائدهم وبحوثهم في معرض الكتاب والندوات الثقافية!

أعرف أن أبو رغيف يعرف أحزان الوطن وأحزان مثقفيه. لكنه كان عصي الدمع شيمته الصبر!

* سينمائي وكاتب عراقي مقيم في هولندا
sununu@ziggo.nl

◆ بغداد